

التصورات العلائقية لدى الشباب المدمن على المخدرات

محمد لمين مزيان/د. عبلة زيوي

جامعة الجزائر 2

- **ملخص:** من خلال هذه الدراسة، حاول الباحثين فحص البعد العلائقي، بالاعتماد على مفهوم العلاقة بالموضوع كصياغة اصطلاحية لفهم وتفسير السلوك الإدماني على ضوء رائج تفهم الموضوع على مستوى مركز الوقاية والعلاج النفسي بولاية الجزائر.

اتضح من خلال النتائج أن السلوك الإدماني يعتبر بمثابة حل متضارب لإشكالية علائقية بدائية، يحاول من خلالها الشخص المدمن التحكم في الاعتماد، الذي يميز استثماراته العلائقية باللجوء إلى المخدر كموضوع تعويضي.

الكلمات المفتاحية: التصورات العلائقية، الإدمان على المخدرات، مفهوم الاعتماد.

- **Résumé :** Les auteurs ont tenté à travers cette étude de traiter la dimension relationnelle, à partir de la relation d'objet en tant que concept, dimension qui permet de comprendre et d'expliquer la toxicomanie et ce, à la lumière du T.A.T au niveau du Centre de Prévention et de soin psychique d'Alger.

Les résultats ont montré que la toxicomanie est un équivalent défensif contre une relation d'objet archaïque à travers lequel le toxicomane tente de contrôler sa dépendance en faisant recours au produit comme objet de remplacement.

Mots clés : Les représentations relationnelles, la toxicomanie, la dépendance.

-**Abstract:** In this study, the authors have attempted to deal with the relational dimension through the object relation as a concept that allows us to understand and explain drug addiction in the light of the TAT at the Center of Prevention and psychological care of Algiers.

The results showed that addiction is a defensive equivalent against an archaic object relationship through which the addict tries to control his addiction by using the product as a substitute.

Key words: Relational representations, addiction, dependency.

-**مقدمة:** يعتبر الإدمان على المخدرات ظاهرة عالمية متعددة الأبعاد، حيث

تنتج عن عوامل متعددة تتسبب في ظهور تعقيدات صحية، اجتماعية، اقتصادية وثقافية متعددة وخطيرة، إذ يصبح السلوك المحرك في السعي وراء المخدر مرتكزا

ليس فقط من منطلق الرغبة، بل من منطلق الحاجة البيولوجية. وتساهم النظرة الإبيستمولوجية في تحديد المفاهيم التي تساعدنا في فهم أدق لهذه الظاهرة، كون المعايير الاجتماعية بكل جوانبها (القانون والثقافة) لا تكفي للحكم عليها.

- **الإشكالية:** يمكن أن نميز في سياق تناول الإبيستمولوجي، بين نموذجين للإدمان مثلما اقترحه (Angel & Angel, 2002)، اللذان فرقا بين النمط الحصري والنمط الواسع، حيث يضم الأول الدراسات التي تركز على مفعول المخدر (النشوة) ويقوم على دراسة المادة المخدرة في حد ذاتها، لذلك فهي تركز على خصوصيات المادة نفسها، وبعبارة أخرى، نجد أنفسنا أمام إدمانات متميزة لكل واحد خاصية معينة. وعلى عكس ذلك، يرتبط النمط الثاني بالسلوك الإدماني في حد ذاته، بغض النظر عن المادة المخدرة، حيث اقترح في هذا الإطار، Fenichel (1945) عند قيامه بتحليل السلوك الإدماني عند الأفراد تحت تسمية "الإدمانات دون مخدر"، مفهوما واسعا يضم مظاهر مختلفة ومتنوعة للإدمان (الإدمان على الكحول والقمار والجنس وحتى بعض السلوكيات الغذائية)، والذي يمكن أن نحصره في مفهوم مشترك وهو مصطلح "Addiction".

أما بالرجوع إلى الدراسات التي ارتكزت على علم النفس المرضي، فنلاحظ تطورا عاما في اتجاه الخطاب التحليلي حول هذا الموضوع. ففي البداية، كان الاهتمام منصبا على الوضعية النوزوغرافية للإدمان، حيث تعددت المحاولات لحصر المشكل في جدول عيادي جامع، مثل عصاب الإدمان لـ Durand، لكي يتحول فيما بعد الاتجاه نحو الخطاب البنيوي بالبحث عن العناصر التي يمكن من خلالها تشخيص الشخصية المدمنة على غرار التوظيفات النفسية الأخرى.

لقد بين في هذا الصدد (Bergeret & Fain, 1981) و (Bergeret & Leblanc, 1984) على أنه لا يمكن حصر مشكل الإدمان في بنية خاصة للمدمن، لكون أن مشكلة الإدمان تتعدى النوزوغرافيا، إذ تظهر في مختلف

البنى النفسية (العصابات، الذهانات)، رغم أنه يظهر بصورة محدّدة لدى التوظيفات الحدية (أورد في: Fain, Bergeret, 1981).

يبدو إذن من خلال ما تم ذكره، أن مفهوم الإدمان يساهم في فهم أوضح للطابع الموحد لهذه الظاهرة وتجلياتها المتعدّدة في إطار التوظيفات النفسية المختلفة، حيث تقول كل من (Fernandez & Catteeuw, 2002): "هذه الإشارة المزدوجة تفتح الطريق لتحليل العلاقات المعقدة القائمة بين مختلف السلوكات الإدمانية وبين الشخصية نفسها، من حيث طرق سير التوظيفات الإدمانية، والذي له عواقب منهجية مباشرة في البحوث العيادية لمختلف مستويات الملاحظة وتمييز مستويات التحليل المتداخلة في الإدمان (السلوكات والسياقات المشتركة وكذا التوظيف النفسي وتنظيم الشخصية)" (أورد في: Fernandez & Catteeuw, 2002).

وعليه لتحديد معالم التوظيف النفسي للمدمن، سوف نحاول استكشاف البعد العلائقي لدى الشخص المدمن، بالاعتماد على مفهوم العلاقة بالموضوع كصياغة اصطلاحية لفهم وتفسير السلوك الإدماني.

يقدم التحليل النفسي تصورا شاملا متكاملا للحياة النفسية لفرد، حيث اقترح Freud في هذا الإطار، مفهوم الجهاز النفسي وكيفية سيره بنموذج يسمح بالكشف عن السياقات التي تحدّد معالم التوظيف النفسي للفرد، والتي تتشكل منذ المراحل الأولى من الحياة، بفضل التفاعلات بين الذات والمحيط ممثلا بالمواضيع التي تستثمرها النزوة.

فكرة الموضوع في التحليل النفسي يمكن فهمها من منطلق مزدوج، والمتمثل في المنظور الداخلي (intrapsychique) أين يمثل الموضوع أحد أبعاد النشاط النزوي باعتباره الوسيط الذي يتم من خلاله إشباع النزوة من جهة، ومن جهة بواسطة المنظور الخارجي الذي يمثل الموضوع بحد ذاته بغض النظر عن ماهيته (شخص أو شيء). هذه الازدواجية دفعتنا إلى تبني نظرة جدلية من شأنها أن توضح لنا السجل النظري القائم في أوساط التحليل النفسي أي بين المنظور النفسي الداخلي المتمثل

بالنظرية النزوية لفرويد والمنظور الخارجي للمحللين النفسانيين الجدد، والذي ينحصر في بعده العلائقي الموضوعي، باعتبارهما مستويين متكاملين لنفس المفهوم.

يتشكل سياق العلاقة بالموضوع في إطار حركة استقطاب وإدماج مستمر للنشاط النزوي، من خلال عملية ارضان لمحتويات تصورية والتي ينتج عنها تمثيلات مختلفة للموضوع (جزئي أو كلي، هوامي أو حقيقي)، وكذا تعبيرات سيكوباتولوجية مثل الفاتيشية وموضوع غريب أو سندي، لكي يضحي مقدرا على أنه موضوع جيد / غير جيد أو الاثنين معا، هذه المظاهر المختلفة للموضوع تتكون في إطار التمايز التدريجي الذي يحدث بينه (الموضوع) وبين الأنا، مما تنتج عنه علاقة تتعدى العلاقة الثنائية (أورد في: Freud, 1897).

تتفق أغلب النظريات التي تناولت النمو النفسي من وجهة العلاقة بالموضوع على أن الإنسان ينطلق في البداية بحكم قصوره البيولوجي من الحاجة أو الاعتماد المطلق على الموضوع الأول (الأم)، لكي تتشكل تدريجيا عناصر بنائية في إطار هذه العلاقة مع الموضوع والتي تتسع أفاقه، لتشمل كل المواضيع الداخلية والخارجية في شكل ناضج إلى مستوى "الاستقلالية النسبية" كما وصفها (Winnicott, 1951).

لهذا يمكن اعتبار الاعتماد كمفهوم محوري للعناصر البنائية المحددة لنمط العلاقة بالموضوع والعناصر العيادية المحددة لعلم النفس المرضي للإدمان. وإذا كان سياق النمو في التحليل النفسي يمر حتما بتجربة فقدان وما تخلفه من معاش اكتئابي الذي يمثل القاعدة التي تحديد الاستثمارات العلائقية التي يقوم الأنا ببنائها مع مختلف المواضيع، والذي يمكن تسميته باختيار الموضوع، يمكن إذن أن نطرح تساؤلنا:

ما هي نوعية العلاقة بالموضوع لدى الراشد المدمن على المخدرات؟

- **المنهجية:** لقد قمنا بإجراء البحث بمركز الوقاية والعلاج النفسي بولاية الجزائر الذي دشّن في 26-06-1991 بمناسبة اليوم العالمي لمكافحة المخدرات،

أين كان من أولويات هذا المركز الإصغاء لكل مشاكل الشباب وإيجاد الحلول لها ومن ضمن المشاكل الكبرى هي مشكلة الإدمان وتعاطي المخدرات.

-خصائص عينة البحث:

جدول 1: خصائص عينة البحث

المتغيرات الحالات	الجنس	السن	الحالة المدنية	الإقامة	المهنة	المستوى التعليمي
الحالة الأولى	ذكر	22 سنة	أعزب	العاصمة	بطل	متوسط
الحالة الثانية	ذكر	28 سنة	أعزب	العاصمة	عامل	متوسط
الحالة الثالثة	ذكر	39 سنة	أعزب	العاصمة	عامل	ثانوي
الحالة الرابعة	ذكر	31 سنة	أعزب	عين الدفلى	عامل	متوسط
الحالة الخامسة	ذكر	23 سنة	أعزب	العاصمة	بطل	متوسط

يتبين من الجدول رقم (01) إن جميع الحالات ذكور وغير متزوجين، وذلك لتفادي كل المتغيرات الدخيلة. وكذا مدمنين على المخدرات ولفترة تفوق سنة. ومن فئة الشباب حيث تراوح سنهم ما بين 20 إلى 40 سنة، وذلك لكي لا يكون لعامل العمر تأثيراً على النتائج.

لقد كانت بداية بحثنا بالاتصال مع العاملين في المركز وخاصة مع المختصة النفسية وذلك لتكوين معرفة أعمق عن الميدان.

شرعنا في عملية انتقاء عينة البحث وفق الشروط التي يتطلبها موضوع بحثنا من خلال المقابلات المباشرة مع البعض منهم وأيضاً بالتطلع على ملفات بعضهم الآخر.

وبعد الموافقة كنا نلتحق بهم من خلال جدول مواعيد المختصة النفسية في المركز، اعتمدنا في انجاز هذا البحث على المنهج العيادي، لدراسة نوعية العلاقة بالموضوع لدى المدمنين على المخدرات.

كما قمنا باستخدام وسليتين متكاملتين وهي المقابلة العيادية ورائز تفهم الموضوع للإلمام بمعطيات الدراسة.

- مناقشة النتائج:

جدول 2: نتائج رائز تفهم الموضوع لدى كل الحالات

الحالات	سلسلة سياقات الرقابة (A)	سلسلة سياقات المرونة (B)	سلسلة سياقات تجنب الصراع (C)	سلسلة سياقات بروز السياقات الأولية (E)
الحالة الأولى	12%	22%	57%	11%
الحالة الثانية	26%	12%	56%	6%
الحالة الثالثة	30%	12%	47%	11%
الحالة الرابعة	18%	10%	65%	7%
الحالة الخامسة	8%	15%	72%	5%

جدول 3: نسب سياقات تجنب الصراع لدى كل الحالات

الحالات	سياقات CF	سياقات CI	سياقات CN	سياقات CL	سياقات CM
الحالة الأولى	3%	30%	3%	10%	7%
الحالة الثانية	2%	22%	12%	4%	12%
الحالة الثالثة	2%	30%	8%	5%	2%
الحالة الرابعة	0%	52%	5%	3%	5%
الحالة الخامسة	3%	50%	18%	1%	0%

يتضح لنا من خلال النتائج الموضحة في الجدولين (02) و(03) أن رائز تفهم الموضوع عند جميع الحالات هيمنة سياقات تجنب الصراع، والذي يبين هشاشة نرجسية لتعامل مع الصراع، نجد أن كل الحالات تستعمل التجنب كوسيلة لحل الصراع، والذي يمكن تأكيده من خلال ارتفاع نسبة سياقات الكف وخاصة منها الميل إلى الاختصار (CI-1) وعدم تحديد دوافع الصراع (CI-2)، والتي تبقى ضعيفة وهشة أمام التهديدات الداخلية، إذ توافق الإشكالية الإكتئابية البدائية غير المرصنة وغير المبنية، التي تظهر من خلال اللوحة 3BM، ومثال على ذلك بالنسبة لأحد الحالات: "هاي تبكي هذي مهيش أمليحة كامل رهي تبكي الله يجعل خير" وأيضا عند إحدى الحالات: "هذا انسان راه حاصل ياخو، ملقلهاش حسابها، حصل في حياتو".

نفس الملاحظة بالنسبة للحالات الأخرى، إذ يغيب عمل الحداد الذي نلمسه من خلال خطابات اللوحة 16، وهي اللوحة التي تبعث إلى الطريقة التي يبني بها الفرد مواضيعه المفضلة، والعلاقة التي يربطها معها دون وجود السند خارجي، حيث فشلت معظم الحالات في سرد قصة مبنية تساعدهم على الخروج من الصراع الذي تحييه مادة رائز تفهم الموضوع.

وقد يرجع ذلك لفقر التصورات التي تسمح للفرد أن يجد حلول وسيطة بين الصراعات النفسية، الأمر الذي دفع بجميع الحالات إلى تناول المخدرات كحل فوري، حيث يلجأ الأنا إلى التجنب والكف، وهو ما يظهر من خلال هيمنة سياقات تجنب الصراع، خاصة منها سياقات الكف، التي تؤكد بدورها على العلاقة الموضوعية من النوع السندي ذات طابع بدائي حيث يميل التوظيف إلى التوظيفات الحدية لوجود إشكالية إكتئابية تستنزف جل الطاقة النفسية لدى معظم الحالات.

وحسب فرويد، يكمن البعد الوظيفي للمادة الإدمانية، من وجهة النظر الاقتصادية، في التخفيف من حدة الكبت، وبالتالي إعطاء حرية كبرى للنشاط النفسي من خلال تحرير الطاقة النزوية التي كانت في خدمة عملية الكبت.

وبالرجوع إلى اللوحة 13MF، نلاحظ غياب الدوافع الجنسية لدى معظم الحالات، بالرغم من التحريضات الكامنة لهذه اللوحة حيث احتوى الخطاب إما على التعبير المباشر عن العدوان، اجتياح السيروتات الأولية أو على شكل كف.

- **استنتاج عام:** إن أثر المخدرات له فعالية في الصراع من أجل تحقيق السعادة وإبعاد الشقاء إلى حد أن الأفراد تخصص له مجالا دائما في اقتصادها الليبدي، فهم لا يدينون لها فقط بالمتعة المباشرة التي تحققها، كما يسميها فرويد "محطمة الهموم" (Briseur de soucis)، بل وأيضا بدرجة الاستقلالية عن العالم الخارجي.

واعتبارا لما تشكله المخدرات من تبعية جسمية ونفسية للفرد، استنتجنا بأن مجموعة دراستنا تلجأ إلى المخدر بسبب صعوبة مواجهة الصراعات التي تثير لديهم إشكالية الشعور بفقدان الموضوع.

كما لاحظنا أن كل الحالات تعاني من إشكالية إكتئابية بدائية من نوع ما قبل الأوديب، أين يغيب عمل الحداد الذي يستلزم قوة الأنا للتعامل مع فقدان وإعادة الاستثمار.

وبالرجوع إلى خطاب الحالات، نجد فشل في التقمصات، كأحد المجالات التي يحرضها رائز تفهم الموضوع حيث يظهر ذلك من خلال هيمنة سياقات الكف خاصة منها في عدم التعريف بالآخر في القصة (CI-2)، فالقدرة على إرصان فقدان لم نجدها حاضرة عند مجموعة الدراسة، لتغلب سياقات الكف وتجنب الصراع، التي تفسر هذه الإشكالية.

وكما أشار إليه (Olievenstein 1991)، فبالنسبة للمدمن على المخدرات، يحدث شيء وسيط بين مرحلة مرآة ناجحة وأخرى غير مكتملة، ففي اللحظة التي من المفروض أن يكون أنا الطفل مختلفا عن الأنا المندمج مع الأم، يجد الطفل نفسه وجها لوجه أمام اكتشاف ذاته، فتتكسر المرآة وتتعكس بذلك صورة مكسورة وغير مكتملة للذات، الأمر الذي يخلف عند الفرد إشكالية إكتئابية في مرحلة متقدمة جدا من العمر، أين يعجز الأنا عن حلها فتضعفه. ومنه يعتبر حقن المادة المخدرة في الوريد، رمزا

لمحاولة تجسيد أو ترميم ما تم كسره، لذا يكون المدمن في حاجة مستمرة للمادة المخدرة لكي يسترجع توازنه أمام إشكالية ثقيلة تعمل على تضعيف نرجسيته. ويصبح بذلك اكتشاف الفرد لهذا الحل (المخدر) موضوعاً مثالياً بالنسبة له، وبدونه يكون الأنا ضعيفاً أمام الصراعات، هذا ما تم استنتاجه عند مجموعة الدراسة من خلال اللجوء إلى سياقات تجنب الصراع بصورة محبذة، كما بينه الجدول 2، وأيضاً من حيث مستواهم الأسلوبي في التعبير ويظهر ذلك جلياً عند أحد الحالات بقوله: "أنا نقدر نحكي كي نكون زاطل"، لذا يمكن القول بأن لجوء الفرد إلى المخدر كحل لصراعاته النفسية يبين بدائية القلق والصراع. وعليه، فإن العلاقة بالموضوع عند مجموعة دراستنا هي من النوع السندي لموضوع متحكم فيه (المخدر) يساعد الفرد على حل صراعاته. وبالرجوع إلى الجدولين 2 و 3، اتضحت هيمنة سياقات الكف (CI) بنسبة عالية جداً والتي تراوحت ما بين 22% - 52% والتي ترتبط في معظم الأحيان مع السياقات المضادة للاكتئاب (الهوسية) (CM) والتي كانت نسبها ما بين 2% - 12%， والتي كانت بدورها مرتفعة عند حالة نجيب بنسبة 12%， أما بالنسبة للحالات الأخرى فقد تراوحت النسب من متوسطة وضعيفة والتي انحصرت معظمها في وظيفة الاعتماد على الموضوع وطلب مساندة العيادي (CM-1) لذا نرى أن هذه السياقات عملت على تجسيد وإبراز الإشكالية الاكتئابية من النوع النرجسي وإشكالية التبعية التي ظهرت من حيث الأسلوب ومن حيث الأداء في الرائز. أما فيما يخص سياقات عدم ثبات الحدود (CL)، فقد كانت النسب ما بين 1% - 10%， حيث ارتفعت لدى حالة واحدة بنسبة 10%， وهي نسبة مرتفعة مقارنة مع مقروئية البروتوكول. أما بالنسبة للحالات الأخرى فقد تراوحت النسب من متوسطة إلى ضعيفة، إلا أن مزجها مع السياقات الأولية (E) التي تراوحت ما بين 5% - 11%， يمكن أن يفسر هشاشة الحدود، ذلك لظهور انزلاقات معتبرة، بحيث هيمنت عليها سياقات تشويه الإدراك (E-1) تارة، وسياقات ضخامة الإسقاط (E-2) تارة أخرى وهي سياقات تعبر عن هشاشة الحدود.

وعليه، يكمن الاختلال بالنسبة للمدمن على مستوى تكوين أنا صلب وقوي أمام علاقة مع أم وأب خالية من الثقة والحب، وكذا، في عدم تجسيد معنى التقاطب الوجداني. ولهذا السبب يتعذر على الجهاز النفسي أن يجسد المثل العليا للأنا التي تساعده على تجاوز الصراعات، لكي تبقى بذلك نزوات العدوان تمارس نشاطها المتواصل نحو الذات حيث يسعى المدمن إلى الحفاظ على ذاته، من خلال المخدر وآثاره فيما يحققه من رضا نرجسي، فيتخذ كموضوع مثالي مؤبد يستحيل التخلي عنه.

يعتبر السلوك الإدماني بمثابة حل متضارب لإشكالية علائقية يمكن أن تكون بدائية يحاول من خلاله الشخص التحكم في الاعتماد الذي يميز استثماراته العلائقية باللجوء إلى المخدر كموضوع انتقالي. فيكمن التضارب هنا في محاولة الشخص لتجنب الاعتماد العلائقي بقيامه باختيار موضوع اعتماد آخر (المخدر) الذي يصبح بمثابة موضوع انتقالي دائم.

لذا فإن نوعية العلاقة بالموضوع لدى الراشد المدمن على المخدرات هي علاقة سنديّة بدائية لاختياره لمواضيع انتقالية سهلة خالية من الصراع على شكل نكوص بدائي أولي.

قائمة المراجع:

- 1- Angel, S., & Angel, P. (2002). *Le langage de Winnicott. Dictionnaire explicatif des termes Winnicottiens*, Paris : Popesco.
- 2- Bergeret, J., & Fain, M. (1981). *La psychanalyste à l'écoute du toxicomane*, Paris : Dunod.
- 3- Bergeret, J., & Leblanc, J et coll. (1984). *Précis des Toxicomanies*, Paris : Masson.
- 4- Fernandez, L., & Catteeuw, M. (2002). *Cliniques des addictions. Théories, évaluation, prévention et soins*, Paris : Nathan.
- 5- Fernandez, L., & Catteeuw, M. (2005). *Clinique des addictions. Théories, évaluation, prévention et soins*, Paris: Armand Colin.
- 6- Freud, S (2005). *Lettre à Fliess, n°55 (11 Janvier 1879). Œuvres complètes (1894- 1899)*, Paris : PUF. (Original work published 1879).
- 7- Freud, S (2005). *Lettre à Fliess n°79 (22 Décembre 1879). Œuvres complètes (1894-1899)*, Paris : PUF. (Original work published 1879).
- 8- Olievenstein, C. (1991). *La vie du Toxicomane*, Paris : PUF.
- 9- Winnicott, D. W. (1969). *Objets transitionnels et phénomènes Transitionnels. De la pédiatrie à la psychanalyse*, Paris: Payot. (Original work published 1951).
- 10- Winnicott, D. W. (1972). *Processus de maturation chez l'enfant*, Paris: Payot.